في سوق العبيد

في ضلوعي دفقةٌ عارمةٌ لا تستكينْ
في ضلوعي أنني أحيا حياةَ الميتين
يا أنا ، يا سلعةً هيِّنةً للمشترين
يا أنا ، يا قدحاً في سهراتِ المترفين
يا أنا ، يا شمعةً تحرقُ ليلَ الكادحين
في ضلوعي ، أيُّ إعصارٍ من الحقد الدفين

تلك آفاقي : دماءٌ ، وحرابٌ ، وسجون
وجباهٌ في الدُّجى تنزفُ خمرَ الحاكمين
وأنا في السورِ ، في إطراقةِ الليلِ الحزين
حاضري وَهْمٌ ، وأشباحٌ تزيَّتْ باليقين

وأرى نفسيَ في سوقِ العبيدْ
يهتفُ البائعُ ، والشاري يزيد

وأرى جاريةً مثلي تُباعْ
وأرى شيخاً وأطفالاً جياعْ
ويحهم ، دُقَّت نواقيسُ الصراع !

وأرى النخاسَ في الثوبِ القشيبْ
حانقاً يعبثُ بالسوطِ الرهيب
سوطُه بين ضلوعي كالوجيب

ويمرُّ الموكبُ الرسميّ فينا
جاءنا اليومَ رسولٌ يشترينا

لم يزل يسكرُ هارونُ الرشيد
وأنا كالقردِ في سوقِ العبيد

أيها الاحرار قد بُحَّت صدورُ الهاتفين
فمتى يا إخوتي موعدنا الدامي يحين !

في دمي دفعةُ ذكرى من ينابيعِ السنين
في دمي قصةُ عدلٍ من حكايا الاولين
لم أزلْ أسمعها داويةً عبرَ القرون

« عمرُ الخطاب ، والمصريُّ ، وابنُ الاكرمين »
« وُلدَ الانسانُ كالانسانِ من ماءٍ وطين »
« وُلدَ الانسانُ حراً ، هاكَ يا ابنَ الاكرمن »
« صفعةٌ خالدةٌ ، موسومةٌ للظالمين »

لم أزلْ أسمعُها داويةً عبرَ القرون
وأرى نفسيَ في سوقِ العبيد
يهتفُ البائعُ ، والشاري يزيد

سيدي ، ها نحنُ غلمان الامير
ككلابِ الصيدِ في حقلِ الامير
نملأُ الدنيا نباحاً وزفير !
وإذا عُدْنا ، فبالصيدِ الوفير !

ككلابِ الصيدِ نمتصُّ العظامْ
وعلى أعتابِ مولانا ننام !

كم شهيدٍ مات في ليلِ الكفاحْ !
جاء يفدينا على الارضِ ، وراح ؟
فأفقنا ، واحترقنا في الصباح !

ايها التمثالُ (١) هل حدثتنا عن ميسلونْ
كم شهيدٍ في ضلوعِ الليلِ مخضوب الجبين !
مات من أجلي ، ومن أجلِ رفاقي البائسين !

أيها التمثالُ ، مازالت يدُ المستعمرين
تخنقُ الآلافَ والآلافَ في الليل الحزين
في روابي القدسِ ، في يافا ، وفي الاسكندرون
وعلى شاطئنا القرصانُ منشورُ السَّفين
مُطْلَقُ الاعلامِ في الآفاقِ مزهوُّ الجبين
يملأُ الليلَ قبوراً ، وضحايا ، وأنين
والثَّكالى في زوايا الليلِ يندبنَ البنين

وارى نفسيَ في سوقِ العبيد
يهتفُ البائعُ والشاري يزيد

في غدٍ يا إخوتي موعدُنا الدامي يحين
حسبُنا كُنَّا قديماً ، فلماذا لا نكون !

دمشق — **يوسف الخطيب**

(١) تمثال البطل الشهيد يوسف العظمة